قطز قاهر التتار

في معركة عين جالوت

تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه الله تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في موقع

http://www.islam-online.net

وفي موقع

https://al-maktaba.org/book/31616/72875

1444 هـ - 2022 م

السلطان الملك المظفر قطز قاهر التتار

هو السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، تسلطن بعد أن خلع الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك في يوم السبت 17من ذي القعدة سنة 657 هـ- 1959م، بعد أن تفاقم خطر التتار، وأصبحت مصر مهددة بغزوهم الوشيك.

وكانت مصر على إثر وفاة ملكها الصالح، ومقتل ولده الملك المعظم قد رفعت على عرشها امرأة هي: شجرة الدر -أرملة الملك الصالح-، فكانت أول ملكة، كما كانت آخر ملكة اعتلت عرش مصر الإسلامية. وأقيم للسلطنة نائب قوي، هو الأمير عز الدين أيبك -كبير المماليك البحرية-، ليعاون شجرة الدر في تدبير الأمور، وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة في تسيير أمور الدولة، وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيرًا بوقوع الفتن والاضطرابات، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة، لذلك رأت شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك، فلما لم تفلح هذه الخطوة في تهدئة الأمور رأت أن تتنازل عن العرش لزوجها، فتولى الأمير عز الدين أيبك عرش مصر باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الثاني سنة 648 هـ 1250م، وحكم مصر زهاء سبع سنين.

وكانت شجرة الدر وراء زوجها تعينه في تصريف الأمور، حتى دب الخلاف بين الزوجين، لاعتزام المعز الزواج ثانية، فدبرت شـــجرة الدر مؤامرة لاغتياله، ونفذتها في بيتها يوم الثلاثاء 23 من ربيع الأول من سنة 655 هـــ - 1257م.

وتولى الملك المنصـــور علي ابن الملك المعز أيبك، المُلْكَ يوم الخميس 25 من ربيع الأول من سنة 655 هـ- 1257م، وكان عمره 15 سنة، فلم يكن قادرًا على تحمل أعباء الملك في ظروف حرجة للغاية؛ إذ كانت البلاد مهددة بالغزو التتري، لذلك خلعه قطز، وتولى الملك مكانه سنة 657 هـــ - 1259م، وكان هدفه: حرب التتار، وإنقاذ مصر خاصة والبلاد العربية عامة من خطر غزوهم الكاسح.

الموقف العام

ولعل في عرض الموقف العام العصيب التي كانت مصر والبلاد العربية تجتازه من جراء الغزو التتري الجارف ما يبرز مبلغ التضحية التي بذلها قطز في قبوله تحمل المســـؤولية حينذاك، في بلد مهدد بغزو خارجي ماحق، وارتباك داخلي فظيع، وقد كان بإمكانه أن يســـتمتع بالســـلطة الفعلية بالرغم من بقاء الملك المنصور في الحكم دون أن يكون المسؤول الأول في مثل تلك الظروف الحرجة،

ولكنه آثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية، فقضى أولاً على الارتباك الداخلي، ووضع الأمور في نصابها، ثم وجه همه إلى العدو الخارجي، فاستطاع بأعجوبة خارقة حقًّا إحراز النصــــر وإنقاذ مصــــر والبلاد العربية من التتار وقواتهم الضاربة.

ففي سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية 1256م، مَلَكَ التتار سائر بلاد الروم بالسيف، فلما فرغوا من ذلك، نزل هولاكو بن طولوي بن جنكيز خان كالإعصار على بغداد في صفر من سنة ست وخمسين وستمائة هجرية 1285م، ودخلوها دخول الضــــواري المفترســــة، وقتلوا مئات الآلاف من أهلها، ونهبوا خزائنها وذخائرها، وقضوا على الخلافة العباسية، وعلى معالم الحضارة الإسلامية، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته..

وتقدم التتار إلى بلاد الجزيرة، واســتولوا على "حران" و"الرُّها" و"ديار بكر" في سنة سبع وخمسين وستمائة هجرية 1259م، ثم جاوزا الفرات، ونزلوا على "حلب" في ســنة ثمان وخمســين وســتمائة هجرية 1260م، واســتولوا عليها وجرت الدماء في الأزقة أنهارًا.

ووصل التتار إلى "دمشق"، وسلطانها الناصر يوسف بن أيوب، فخرج هاربًا ومعه أهل اليسـار، ودخل التتار دمشـق، وتسـلموها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وفتكوا بهم، ونهبوا وسلبوا ودمروا.

وتعدوا دمشق، فوصلوا إلى "نابلس"، ثم إلى "الكرك" وبيت المقدس، وتقدموا إلى "غزة" دون أن يلقوا مقاومة تذكر، واضـطر هولاكو فجأة إلى مغادرة سـورية، بعد أن جاءته الأخبار بوفاة أخيه الأكبر "منكوقاآن" في الصـين، وبتنـازع أخويـه الآخرين "قوبيلاي" و"أريق بوكـا" ولايـة العرش. وقد اسـتثمر التتار حرب الصـاعقة، التي تعتمد على سـرعة الحركة، كما استثمروا حرب الأعصـاب إلى أقصـى مدى، فنشـروا الذعر والخوف في كل مكان، وحيثما اتجهت قواتهم كانت تسبقهم الأقاصيص عن طغيانهم وقسوتهم ومذابحهم.

موقف أوروبا

فرحت أوروبا النصرانية بانتصـار التتار على المسلمين، فقد كانوا من أصدقاء النصارى وفيهم بعض النصارى، ولهولاكو نفسه زوجة نصرانية، فضلاً عن أن القائد الذي ولي أمر سـورية عندما غادرها هولاكو كان نصـرانيًا، كل هذا جعل

البـابوات وحكـام غرب أوروبـا ينظرون إلى التتـار وكـأنهم حلفـاؤهم في قتـال المسلمين.

والواقع أن فكرة تكوين حلف من الأوروبيين والتتار لتدمير البلاد الإســـلامية، كانت موضـع تفكير البابوات في عصـور متتالية، وكانت سـياسـية هؤلاء تهدف إلى نشــر الدين النصــراني بين التتار، وقد تبادل التتار وحكام أوروبا البعوث، وعلى ســبيل المثال: فقد دعا لويس التاســع قســمًا من رجال أمير التتار إلى فرنســا، حيث فاوضــهم على عقد اتفاقية عسـكرية، تنص على أن يقوم طرفاها بعمليات حربية على المسلمين، يكون فيها دور التتار غزو العراق وتدمير بغداد والقضـــاء على الخلافة الإســـلامية، ويكون دور الصـــليبيين حماية هذا الغزو التتري من الجيوش المصـرية, وتجريد جيوشــهم لمنع نجدة القوات المصــرية للمســلمين في آســيا، وبالأحرى تقوم بعزل مصــر عزلاً تامًا عن ســائر البلاد العربية.

ولم يكفّ لويس التاســع عن العمل لاســتمالة التتار، وتســخير قوتهم المدمرة لضرب الإسلام، ففي السابع عشر من يناير سنة 1249م سنة 646هـ أرسل إلى أمير التتار هدايا ثمينة حملها إلى الأمير وفد على رأســه الراهب الدومنيكي "أنـدريـه دي لونجيمو"، وممـا يـذكر أنـه كـان من بين هـذه الهـدايـا قطعـة من

الصليب المقدس وصورة للسيدة العذراء، ومختلف النماذج الصغيرة لعديد من الكنائس.

ويقول الأسقف "دي مسنيل- Du Masnil" نائب مدير البعثات التبشيرية في روما- في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية: "اشتهر هولاكو بميله إلى النصارى النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عددًا كبيرًا منهم، من بينهم قائدهم الأكبر "كتبغا" وهو تركي الجنس نصراني نسطوري، كما كانت الأميرة "دوكس خاتون" زوجة هولاكو نصرانية أيضًا.

ولقد لعب نفوذ هذه الأميرة على زوجها دورًا خطيرًا، تفخر به الكنيسة في تجنيب أوربا النصرانية أهوال الغزو التتري، وتوجيه غزوهم إلى العرب المسلمين في الشرق العربي، حيث ذبحت قوات التتار العرب المسلمين في مذابح بغداد، في الوقت الذي أبقت فيه على النصارى في تلك المدينة، فلم تمسهم في أرواحهم أو أموالهم بأذى، كما لعبت الأميرة دورًا في إغراء زوجها باحتلال سورية الإسلامية.

ويصف الأسقف حملة التتار فيقول: "لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نصرانية نسطورية، وقد هلل لها الغرب وارتقب الخلاص على يد "هولاكو" وقائده النصراني "كتبغا" الذي

تعلق أمل الغرب في جيشـهما، ليحقق له القضـاء على المسـلمين، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصـليبية، ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم العرب والمسلمين.

وقد بادر "هاتون الأول" -ملك إرمينية - و"بوهومونت السـادس" - أمير طرابلس -، وأمراء الإفرنج "صور" و"عكا" و"قبرص" بادر هؤلاء جميعًا إلى عقد حلف مع التتار، يقوم على أساس القضـاء على المسـلمين كافة في آسـيا، وتسليم هؤلاء الأمراء بيت المقدس.

ويقول "دي مسـنيل" في كتابه عن تاريخ التبشـير: "إن النصـارى هم الذين حرضـوا "هولاكو" على الرحيل عن سـورية إلى بلاده، ومحاربة أخيه هناك، بسبب موالاته للإسلام."

وأخيرًا انتهى أمل الصليبيين بدخول التتار في الإسلام، وفي ذلك يقول الأسقف "دي مسنيل" واصفًا هذه الخاتمة: "وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوته على الزوال، يسترد مكانته، ويستعيد قوته، ويصبح أشد خطرًا من ذي قبل."

لقد كانت مهمة قطز صعبة جداً، لأنه كان عليه أن يواجه الخطر الداخلي المتمثل بالارتباك والفوضى في نظام الحكم والصراع على السلطة، وفي الوقت نفسه

كان عليه أن يواجه الخطر الخارجي المتمثل بالغزو التتري الداهم المتحالف مع الصليبيين في الغرب والشرق معًا.

زحف التتار

قبل مغادرة "هولاكو" سـورية أرسـل رسـولاً من رجاله وبرفقته أربعون رجلاً من الأتبـاع إلـى قطز يحملون إليـه رسـالـة منـه جاء فيهـا: "من ملك الملوك شـرقًا وغربًا القائد الأعظم: باسـمك اللهم، باسـط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سـيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسـلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على مَن حَلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم. قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقّ لمن شـكر، وقد سـمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفسـاد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟! فما لكم من سـيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سـوابق، وسـهامنا خوارق، وسـيوفنا

صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُســـمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفُّون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشــا فيكم العقوق والعصـيان، فأبشـروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفســقون، وســيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصـد أماننا سـلم، فإن أنتم لشـرطنا وأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسـكم بأيديكم، فقد حذّر من أنذر. وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سَــلَّطَنا عليكم من له الأمور المقدّرة، والأحكام المدبرة، فكبيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شـرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى."

وكان ذلك في ســنة ثمان وخمســين وســتمائة هجرية "أوائل ســنة 1260م."

فلما سمع قطز ما في هذا الكتاب جمع الأمراء، واتفقوا على قتل رُسُل هولاكو، فقبض عليهم، واعتقلوا، وأمر بإعدامهم فأعدموا توسيطًا-أي:ضربوا بالسيف

في وسطهم ليشطروا شطرين -، كل مجموعة منهم أمام باب من أبواب القاهرة، وعُلقت رؤوســـــهم على باب "زويلة". لقد عقد قطز العزم على حرب التتار، وكان قراره نهائيًا لا رجعة عنه؛ إذ هو المسوغ الوحيد لاستيلائه على السلطة، وتواترت المعلومات الموثوق بها عن زحف التتار باتجاه مصـــر، كما علم المصريون باستيلاء التتار على سورية وفلسطين، كما وصل إلى القاهرة كمال الدين عمر بن العديم أحد العلماء الأعلام رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوســـف صـــاحب حلب والشـــام يطلب من قطز النجدة على قتال التتار. وجمع قطز القضــــاة والفقهاء والأعيان لمشـــاورتهم فيما يعتمد عليه من أمر التتار، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، وحضر أصحاب الرأي في دار السلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والقاضي بدر الدين السنجاري -قاضي الديار المصرية-، وأفاضوا الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد الســـلام، وخلاصــــة ما قال: "إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشـــرط ألا يبقى في بيت المال شـــيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص-أي:حزام الرجل وحزام الدابة- المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وســـلاحه، ويتســـاووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة، مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا يجوز."

وانفض المجلس على ذلك، ولم يتكلم السلطان، وهو الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك، لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنه، فلهج الناس بخلع السلطان وتولية قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم. فقد علم قطز أنه لا بد من خروجه من مصر على رأس قواته العسكرية لقتال التتار، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما يريد، لأن الآراء مغلولة لصغر سن السلطان، ولأن الكلمة مختلفة، فجمع قطز الأمراء والعلماء من أصحاب الرأي، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد من أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد، وينتصب للجهاد في التتار، فأجابه الجميع: ليس لها غيرك.

لقد كان الجواب على رسالة هولاكو هو: القتال، ولا شيء غير القتال. وكان هذا القرار متفقًا عليه من الجميع قبل وصول وفد هولاكو، وقبل وصول رسالته إلى القاهرة.

ولم يكن إعدام الوفد إلا حافزًا جديدًا لقطز وقواته على القتال، دون أن يتركوا الباب مفتوحًا لحل آخر غير القتال.

وهذا موقف لقطز في مثل تلك الظروف التي كانت تحيط به، موقف يُحمد عليه، لأنه انتزع آخر أمل من نفوس المترددين والانهزاميين في احتمال رضوخ قطز

إلى مطالب التتار، فقال قطز قولته الحاسمة: "إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعًا إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون مسلمين أمام الخلق."

الحشد

خرج قطز يوم الإثنين الخامس عشر من شعبان سنة 658 هـ - 1260م بجميع عسكر مصر ومن انضم إليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل في القاهرة، يريد معسكر الصالحية، معسكر مصر الكبير في شرق الدلتا.

وقبل ذلك، وفي اليوم نفسه، أحضر قطز رسل "هولاكو" وأعدمهم، ليضع قواته المسلحة أمام الأمر الواقع: لا مفر من القتال.

ونودي في القاهرة والفُسطاط وسائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد، وتقدم قطز إلى جميع الولاة يحث الأجناد للخروج إلى القتال، وسار حتى وصل إلى الصالحية، وتكامل حشد قواته، فجمع الأمراء وكلمهم بالرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا عن الرحيل، فقال لهم: "يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين."

وتكلم الأمراء الذين اختارهم وحلّفهم مؤيدين له في المسـير، فلم يسـع البقية غير الموافقة. لقد جمع قطز قادته قبل المسـير، وشـرح لهم خطورة الموقف، وذكرهم بما وقع من التتار في البلاد التي غزوها من شـنيع السـفك والتخريب، وما ينتظر مصـر وأهلها من مصـير مروع إذا انتصـر التتار، وحثهم وهو يبكي على بذل أرواحهم في سـبيل إنقاذ الإسـلام والمسـلمين من هذا الخطر الداهم، فضـج القادة بالبكاء، ووعدوا ألا يدخروا وسـعًا في سـبيل مقاتلة التتار، وإنقاذ مصر والإسلام من شرهم.

ولكن لماذا خاف قادة قطز التتار؟

كان هولاكو في خلق لا يحصـيهم إلا الله، ولم يكونوا من حين قدومهم على بلاد المسلمين سنة 616 هـ - 1219م يلقاهم عسكر إلا فلّوه، وكانوا يقتلون الرجال ويسـبون النسـاء ويسـتاقون الأسـرى وينهبون الأموال، لذلك آثر قادة قطز بعد إكمال حشد قواتهم حماية مصر لا غير، لكثرة عدد التتار واستيلائهم على معظم بلاد المسـلمين، لأن التتار لم يقصـدوا إقليمًا إلا فتحوه، ولا عسـكرًا إلا هزموه، ولم يبق خارج حكمهم إلا مصر والحجاز واليمن، وقد هرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصـر إلى المغرب، لقد كانت المعنويات منهارة، فلا عجب أن يبذل قطز كل جهده لرفع معنويات قادته ورجاله خاصـة، والشـعب المصـري عامة،

وأن يستحث القادرين على حمل السلاح للجهاد بأرواحهم، والقادرين على تقديم الأموال للجهاد بأموالهم، وأن يحشـــد كل طاقاته المادية والمعنوية للحرب، فلا يعلو صوت على صوت المعركة، ولا يُقبل عذر من أحد قادر على الجهاد بماله وروحه، وقد قدم قطز مثالاً شـخصـيًا رائعًا في الجهاد بماله وروحه في سـبيل الله.

كما أن قطز صمّم على لقاء التتار خارج مصـر، وألا ينتظرهم في مصـر للدفاع عنها على الأرض المصـــرية، حتى يجنب مصـــر ويلات الحرب أولاً، ويرفع معنويات رجاله ومعنويات المصــريين ثانيًا، ويوحي للتتار بأنه لا يخافهم فيؤثر ذلك على معنوياتهم ثالثًا، ولأن المدافع لا ينتصـــر مطلقًا إلا في نطاق ضـــيق محدود بعكس المهاجم الذي يؤدي انتصـــاره إلى كارثة تحيق بعدوه رابعًا، ولأن الهجوم أنجح وسائل الدفاع خامسًا وأخيرًا.

إن تصميم قطز على قبول المعركة خارج مصر، كان قرارًا عسكريًا فذًا.

المعركة

وخرج قطز من مصـر في الجحافل الشـامية والمصـرية، في شـهر رمضـان من سنة 658 هـــ 1260م وغادر معسكر الصالحية بجيشه، ووصل مدينه "غزة" والقلوب وجلة، وكان في "غزة" جمع التتار بقيادة "بيدر"، وكان بيدر هذا قد

أخبر قـائده "كتبغا نوين" الـذي كـان في ســـــهل "البقـاع" بـالقرب من مـدينـة "بعلبك" بزحف جيش قطز، فرد عليه: "قف مكانك وانتظر". ولكن قطز داهم "بيدر" قبل وصـــول "كتبغا نوين" فاســـتعاد غزة من التتار، وأقام بـها يومًا واحدًا، ثم غادرها شمالاً باتجاه التتار.

وكان "كتبغا" مقدم التتار على جيش "هولاكو" لما بلغه خروج قطز، وكان في سهل البقاع قد عقد مجلسًا استشاريًا، واستشار ذوي الرأي في ذلك، فمنـهم من أشــار بعدم لقاء جيش قطز في معركة، والانتظار حتى يجيئه مدد من "هولاكو" ليقوى على مصـاولة جيش المسـلمين، ومعنى هذا مشـاغلة جيش قطز بالقوات المتيسرة لديه ريثما ترده النجدات التي تضمن له النصر، ومنـهم من أشار بغير ذلك -قبل المعركة- اعتمادًا على قوات التتار التي لا تقهر، وهكذا تفرقت الآراء، وكان رأي "كتبغا نوين" قبول المعركة ومواجهة جيش قطز، فتوجه من فوره جنوبًا باتجاه القوات المصرية.

وكان أول الوهن اختلاف الآراء وظهور رأي يحبذ الانســحاب، ورأي يحبذ عدم الانسحاب وقتال قطز.

وبعث قطز طلائع قواته بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لمناوشـــة التتار واختبار قواتهم، واستحصال المعلومات المفصلة عن تنظيمهم وتسليحهم

وقيادتهم، فالتقى بيبرس بطلائع التتار في مكان يقع بين "بيســـان" و"نابلس" يدعي: "عين جالوت" في "الغور" غور الأردن، وشاغل التتار حتى وافاه قطز على رأس القوات الأصــلية من جيشـــه، وفي يوم الجمعة 25 رمضـــان ســـنة 658هـ- 6 سبتمبر1260م نشبت بين الجيشين المتقابلين معركة حاسمة، وكان التتار يحتلون مرتفعات "عين جالوت"، فانقضـوا على جيش قطز تطبيقًا لحرب الصـــاعقة التي دأب التتار على ممارســـتها في حروبهم، تلك الحرب التي تعتمد سرعة الحركة بالفرسان، وكان القتال شديدًا لم يُر مثله، حتى قتل من الجانبين جماعة كثيرة.

وتغلغل التتار عميقًا، واخترقوا ميســـرة قطز، فانكســـرت تلك الميســـرة كســـرة شـــنيعة، ولكن قطز حمل بنفســـه في طائفة من جنده، وأســـرع لنجدة الميســـرة، حتى استعادت مواقعها.

واســـتأنف قطز الهجوم المضـــاد بقوات "القلب" التي كانت بقيادته المباشـــرة، وكان يتقدم جنوده وهو يصيح: "وا إسلاماه.. وا إسلاماه.." واقتحم قطز القتال، وباشـــر بنفســـه، وأبلى في ذلك اليوم أعظم البلاء، وكانت قوات "القلب" مؤلفة من المتطوعين المجاهدين من الذين خرجوا يطلبون الشـــهادة، ويدافعون عن الإسلام بإيمان، فكان قطز يشجع أصحابه، ويحسّن لهم الموت، ويضرب لهم

المثل بما يفعله من إقدام ويبديه من استبسال. وكان قطز قد أخفى معظم قواته النظامية المؤلفة من المماليك في شعب التلال، لتكون كمائن، وبعد أن كر بالمجاهدين كرة بعد كرة حتى زعزع جناح التتار، برز المماليك من كمائنهم وأداموا زخم الهجوم بشدة وعنف.

وكان قطز أمام جيشه يصرخ: "واإسلاماه.. واإسلاماه.. يا الله انصر عبدك قطز على التتار"، وكان جيشه يتبعه مقتديًا بإقدامه وبسالته، فقتل فرس قطز من تحته، وكاد يعرض للقتل لولا أن أسعفه أحد فرسانه، فنزل له عن فرسه. وسارع قطز إلى قيادة رجاله متغلغلاً في صفوف أعدائه، حتى ارتبكت صفوف التتار، وشاع أن قائدهم "كتبغا نوين" قد قُتل، فولوا الأدبار لا يلوون على شيء.

وكان "كتبغا نوين" يضرب يمينًا وشمالاً غيرة وحمية، وكان يكر على المسلمين، فرغَّبه جماعة من أتباعه في الهرب، ولكنه لم يستمع إليهم وقال: "لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان."

ورغم أن جنوده تركوه وهربوا فقد ظل يقاتل حتى قُتل، وفي رواية أخرى أن جواده كبا به، فأسره المسلمون، والرواية الأولى أصح.

وكانت هناك مزرعة للقصـــب بالقرب من ســـاحة القتال، فاختفى فيها فوج من التتار، فأمر قطز جنوده أن يضرموا النار في تلك المزرعة، وأحرقوا فوج التتار جميعًا.

وبدأ المسلمون فورًا بمطاردة التتار، كما طاردهم المسلمون الذين لم يكونوا من جيش قطز، حتى دخل قطز دمشـق في أواخر شـهر رمضـان المبارك، فاسـتقبله أهلها بالابـتهاج.

وامتدت المطاردة الســـريعة إلى قرب مدينة حلب، فلما شـــعر التتار باقتراب المســلمين منهم تركوا ما كان بأيديهم من أســارى المســلمين، ورموا أولادهم، فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه.

أسباب النصر

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لمعرفة أسباب انتصار قطز على التتار.

إن كل الحسابات العسكرية تجعل النصر إلى جانب التتار بدون أدنى شك، ولكن الواقع ينـاقض كـل تلـك الحســـابـات، فقـد انتصـــر قطز، وانهزم التتـار. فقد كـان لقـادة التتـار تجـارب طويـلة في الحروب، ولم يكن لقطز وقـادتـه مثل تجارب قادة التتار ولا ما يقاربها، والقائد المجرب أفضل من القائد غير المجرب قطعًا، وكذلك الجيش المجرب أفضل من الجيش الذي لا تجربة له.

وكانت معنويات التتار قادة وجنودًا عالية جدًا، لأنهم تقدموا من نصر إلى نصر، ولم تهزم لهم راية من قبل أبدًا، وكانت معنويات قادة قطز وجنوده منهارة، وقد خرج أكثر القادة إلى القتال كرهًا.

وقد انتصر التتار في حرب الأعصاب، فكانوا ينتصرون بالرعب، مما يؤثر في معنويات أعدائهم أسوأ الأثر، والجيش الذي يتحلى بالمعنويات العالية ينتصر على الجيش الذي تكون معنوياته منهارة.

وكانت كفاية جيش التتار متفوقة على كفاية جيش قطز فواقًا كاسحًا، لأن جيش التتار خاض معارك كثيرة، لذلك كانت تجربته العملية على فنون القتال باهرة إلى أبعد الحدود، أما جيش قطز، فقليل التجربة العملية قليل التدريب. والجيش الذي يتحلى بالكفاية -خاصة في ميدان التدريب العملي- ينتصر على الجيش الذي لا كفاية عملية لديه.

وكان جيش التتار متفوقًا على جيش قطز عَددًا وعُددًا، وقد ازداد تعداد جيش التتار بالذين التحقوا به من الموالين والمرتزقة والصليبيين، بعد احتلاله أرض الشام، والتفوق العَددي والعُددي من عوامل إحراز النصر.

وكان جيش التتار يتمتع بمزية فرسانه المتدربين، وكان تعداد فرسانه كبيرًا، مما ييسر له سرعة الحركة، ويؤدي إلى تطبيق حرب الصاعقة التي كانت من

ســـمات حرب التتار، والجيش الذي يتحلى بســـرعة الحركة يتغلب عل الجيش الذي لا يتحلى بهذه الميزة.

وكانت مواضع جيش التتار في عين جالوت أفضل من مواضع جيش قطز، لأن تلك المواضـــع كانت محتلة من التتار قبل وصـــول جيش قطز إلى المنطقة التي كانت تحت سيطرة التتار.

وللأرض أثر عظيم فى إحراز النصر

وكان جيش التتار متفوقًا على جيش قطز في قضـــاياه الإدارية؛ إذ كان يســـتند على قواعده القريبة في أرض الشـــام، وهي التي اســـتولى عليها واســـتثمر خيراتها، بينما كانت قواعد جيش قطز بعيدة عنه، لأنه كان يعتمد على مصـــر وحدها في إعاشـته، والمسـافة بين مصـر وعين جالوت طويلة؛ خاصـة في تلك الأيام التي كانت القضـايا الإدارية تنقل على الدواب والجمال مخترقة الصـحاري والوديان والقفار.

هذا التفوق الساحق الذي بجانب التتار في سبع مزايا حيوية:

التجربة العملية، والمعنويات العالية، والكفاية القتالية، والعدد والعدة، وســـرعة الحركة، والأرض، والقضايا الإدارية، هذا التفوق له نتيجة متوقعة واحدة، هي:

إحراز النصر على قطز وجيشه أسوة بانتصاراتهم الباهرة على الروم والفرس والعرب والأمم الأخرى في زحفهم المظفر الطويل.

ولكن الواقع أن الجيش المصري انتصر على جيش التتار، فكيف حدث ذلك؟

أولاً: قدّم شيوخ مصر، وعلى رأسهم الشيخ العز بن عبد السلام إرشاداتهم الدينية لقطز، فأخذ بها ونفذها على نفسه وعلى رجاله بكل أمانة وإخلاص، وأمر رجاله بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فخرج الجيش من مصر تائبًا منيبًا طاهرًا من الذنوب.

وكان على رأس المجاهدين جميع القادرين من شيوخ مصر على السفر وحمل السلاح وتحمل أعباء الجهاد.

ثانيًا: قيادة قطز الذي كان يتحلى بإرادة القتال بأجلى مظاهرها، فكان مصممًا على قتال التتار مهما تحمل من مشاق، وبذل من تضحيات، ولاقى من صعاب.

ولعل إصراره على مهاجمة التتار خارج مصر، وعدم بقائه في مصر، واختياره الهجوم دون الدفاع، واستبعاده خطة الدفاع المستكن، هو الذي جعل رجاله قادة وجنودًا في موقف لا يؤدي إلا إلى الموت أو النصر، مما جعلهم يستقتلون في الحرب، لأنه لم يكن أمامهم في حالة الهزيمة غير الإبادة والإفناء. إن قطز لم يجاهد ليتولى السلطة، بل تولى السلطة من أجل الجهاد.

ثــالثًـا: إيمـان قطز بـالله واعتمـاده عليـه، وإيمـان المتطوعين في جيشـــــه من المجاهدين الصـــادقين الذين خرجوا طلبًا للشـــهادة، كان له أثر عظيم في إحراز النصر.

إن أثر قطز والمجاهدين معه في معركة عين جالوت كان عظيمًا، وحين اطمأن قطز إلى نصر الله ترجل عن فرسه، ومرغ وجهه في التراب تواضعًا، وسجد لله شكرًا على نصره، وحمد الله كثيرًا وأثنى عليه ثناءً عاطرًا.

لقد كان انتصار المسلمين في "عين جالوت" على التتار انتصار عقيدة لا مراء.

الشــهيد

لم تمض أسـابيع قلائل، حتى طُهرت بلاد الشـام كلها من فلول التتار، فرتب قطز أمور البلاد، واســتناب على دمشــق أحد رجاله، ثم خرج من دمشــق عائدًا إلى مصر، إلى أن وصل إلى "القصير"، وبقي بينه وبين الصـالحية المعسكر الذي حشـــد فيه قواته قبل الحركة لقتال التتار مرحلة واحدة، ورحلت قواته إلى جهة الصـــالحية، فانقض عليه عدد من الأمراء وقتلوه على مقربة من خيمته، ذلك يوم السبت 16 من ذي القعدة سنة 658 هـ- أكتوبر- 1260م، ولم يمض يومان على قتله حتى حلّ "بيبرس" مكانه باسم الملك الظاهر.

وقد دفن قطز في موضـــع قتله، وكثر أســـف الناس وحزنهم عليه، وكان قبره يُقصد دائمًا للزيارة..

وكانت سلطنة قطز سنة إلا يومًا واحدًا.

وكان قطز بطلاً شجاعًا مقدامًا حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، كما قال فيه الذهبي، وله اليد البيضـــاء في جهاد التتار، فعوض الله شـــبابه بالجنة ورضي عنه.

لقد كان قطز صادقًا عزيز النفس، كريم الأخلاق، مجاهدًا من الطراز الأول.

قُتل قاهر التتار مظلومًا، فخسر روحه وربح الدنيا والآخرة، وسجله التاريخ في أنصـع صـفحاته - رضـي الله عنه وأرضـاه-، وجعله قدوة صـالحة لقادة العرب والمسـلمين، فما أشـبه غزو التتار بغزو الصـهاينة، وما أشـبه دعم الصـليبيين القدامى للتتار بدعم الصليبيين الجدد للصهاينة، وما أحوجنا اليوم إلى مثله قائدًا يتخذ الهجوم مبدأ، ولا يكتفي بالدفاع، ويتخذ العمل منهجًا ولا يكتفي بالكلام، ويقاتل العدو الصـــهيوني في الأرض المحتلة، ولا ينتظر أن يقاتله في أرضـــه، ويطلب الموت لتوهب له الحياة.